التربية في العبادة

تأليف
السيد حسين الصدر
- دام ظله -

التربية في العبادة

تأليف

سماحة السيد حُسين الصدر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين
والصلاةُ والسلامُ على نبينا محمد
وعلى آله الطيبين الطاهرين
وأصحابه المنتجبين

العبادة... وأثرها في السلوك

إنَّ العبادة.. لها أثر كبير في تربية الأخلاق وتنميتها وتهذيبها عند الإنسان.. لأنَّ حقيقة الإنسان ليس بهذا الغلاف الظاهر المادي الذي نراه ونحسّه، والذي يسعى في طلب حظّه من طعام الأرض وشرابها.. كل ذلك ليس من حقيقة الإنسان في شيء.. وإنّما حقيقة الإنسان في جوهره النفيس، وما فيه من الطاقات الخلاّقة التي أكملت إنسانيته..

وبه.. وجدَ عزّته وكرامته..

وبه.. صارَ سيّداً على ما فوق الأرض من موجودات وكائنات..

وبه.. صارَ خليفة الله(سبحانه) في هذه الدنيا.

ذلك الجوهر النفيس.. هو الروح التي تجد حياتها وزكاتها وطهارتها ونقاءها، في مناجاة الله ﷻ..

والتي تجد سمّوها وصفاءها وعلوّها في عبادة الله ﷻ.

فالعبادة، هي الغذاء والنماء لهذه الروح، والتي تمدّها

بمـدد يـومي لا ينفـد ولا يفـيض.. وقـد قـال أحـد العلمـاء العرفاء :-

((إنَّ للعبادة وذكر الله.. أثره في تربية الوجدان الديني للإنسان، فتكثر فيه الرغبة إلى الخيرات والعمل الصالح، وتقلّ فيه الرغبة إلى الشرّ والفساد والذنوب))

يعني أنَّ العبادة تزيل الظلمات والكدورات الحاصلة من الذنوب.. وتبدّلها بالميل إلى الخير والبرّ والعمل الصالح.. ومهما صدأ هذا الجوهر بالشكِّ والجحود، أو بالغفلة والغرور.. يعود إلى الله(سبحانه)، عند هبوب عواصف المحن والابتلاءات، أو اندلاع نار الشدائد والنكبات، فينجلي الصدأ ويعود الإنسان إلى ربّه، فيدعوه ويتضرع إليه.

وهذه الحقيقة ذكرها القرآن الكريم، وأيّدتها وقائع الحياة..

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيْحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوْا بِهَا جَاءَتْهَا رِيْحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوْا أَنَّهُمْ أُحِيْطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ

هَذِهِ لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِيْنَ﴾[١]

وهكذا.. فإنَّ القلب الإنساني دائم الشعور بالحاجة إلى اللهﷻ، وهذا الشعور شعور غريزي أصيل صادق، لا يمكن أن يملأ فراغه شيء من الوجود، إلاّ حُسُن الصلة بربِّ الوجود وهذا ما تقوم به العبادة، إذا أُدّيت على وجهها الصحيح.

ويقول أحد العلماء العرفاء:-

القلب فقير بالذات إلى الله، من جهتين..

١-من جهة العبادة.

٢-من جهة الاستعانة والتوكّل.

فالقلب، لا يصلح ولا يفلح ولا ينعم ولا يسرّ ولا يلتذ ولا يطيب، ولا يسكن ولا يطمئن إلاّ بعبادة ربّه وحده، وحبّه، والإنابة إليه.. ولو حصلَ له كل ما يلتذّ به من المخلوقات، لم يطمئن ولم يسكن.

إذ أنَّ فيه فقراً ذاتياً إلى ربّه.. أي بالفطرة، من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه.. وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة.

---

[١] سورة يونس/آية/٢٢.

وهذا لا يحصل له.. إلاّ بإعانة الله له وإحسانه وتوفيقه إليه، فهو دائم مفتقر إلى حقيقة (إيّاك نعبد وإيّاك نستعين).. فإنّه لو أُعينَ على حصول كل ما يحبّه ويطلبه ويشتهيه ويريده، ولم يحصل له عبادة الله، فلن يحصل إلاّ على الألم والحسرة والعذاب.. ولن يتخلّص من آلام الدنيا ونكد عيشتها، إلاّ بإخلاص الحبّ لله، بحيث يكون الله هو غاية مراده، ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه إنّما يحبه لأجله.

وهكذا يتضح.. أنَّ طهارة الروح ونقاء القلب، لا يتمّ إلاّ بإخلاص العبودية لله.. فإنَّ من عَبَدَ الله، وجد نفسه، واهتدى إلى سرّ وجوده، وكملت سعادته، وحَسُنَ خُلُقه، وارتاحت روحه، وطهرت نفسه.

كل ذلك.. نتيجة للعبادة وحلاوة الإيمان، وأنّه لا يمكن أن يتذوّق حلاوة الإيمان، إلاّ من عبدَ الله وخَشِيَهُ وآثره على كل ما سواه.

ويقول أحد علماء الأخلاق:-

لا شيء أحبّ إلى القلوب، من خالقها وفاطرها، فهو

إلهها ومعبودها ووليّها ومولاها، وربّها ومدبّرها ورازقها ومميتها ومُحيّيها.

فمحبّته.. نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفوس، وقوت القلوب، ونور العقول، وقرّة العيون، وعمارة الباطن.

فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيّبة والعقول الزاكية، أحلى ولا ألذّ ولا أطيب ولا أسرّ ولا أنعم.. من محبته والأنس به والشوق إلى لقائه.. والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم، واللذّة التي تناله أعلى من كل لذّة.

وهكذا، فإنَّ الإنسان كلما كان أعرف بربّه كثرت رغبته إليه، وكلما ازداد حبّه لله، ازداد قربه منه ومن رحمته وإحسانه.. وكلما ازداد حبّه، ازداد له عبودية وذلاً وخضوعاً وخشوعاً.

ومن الواضح.. أنَّ الإنسان بهذه العبودية الصادقة لله، يعرف ما له وما عليه، ويعرف حقّه وحقّ الآخرين.

فهو يطيع الله(سبحانه) بكلّ ما أمرَ به وينتهي عن كلّ ما

نهى عنه، وبذلك يكون ذا خُلُق كامل، هذا من جانب.

ومن جانب آخر، أنَّ العبادة الصحيحة، تؤكد عند الإنسان، اللين والتواضع واللطف والبشاشة.. وكل ذلك من أهم أسباب حُسْن الخُلُق، ومن أهم الموجبات للوصول إلى درجة الأخلاق الفاضلة.. هذا كله.. بالإضافة إلى أنَّ العبادة مطلوبة لذاتها، وغاية في نفسها.. ومن الواضح أيضاً.. أنّه لا تكمل العبادة إلاّ بالإيمان الصحيح، الإيمان الحقّ.

فإنَّ المؤمن وحده الذي يجد في عبادة ربّه، سكينة لنفسه، وأُنساً لوحشته، وانشراحاً لصدره، وتخفيفاً عن كاهله.. كما قال سبحانه لرسوله الكريم:-

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيْقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُوْلُوْنَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِيْنَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِيْنُ﴾[1]

وهكذا، فإنَّ الله ﷻ، يدلُّ نبيّه الكريم على العبادة كلما ضاق صدره، بأقاويل المتقوّلين وأكاذيب المفترين المبطلين.

---

[1] سورة الحجر/آية/(٩٧-٩٩).

تلازم العبادة والأخلاق..

فإنَّ هناك تلازما وثيقاً بين العبادة التي هي ثمرة الإيمان وبين الأخلاق، وأنَّ الخُلُق مُقوّم أصيل من مقوّمات الشخصية الإسلامية.. ولهذا فإنَّ أبرز وأهم ما أثنى به الله(تعالى) على نبيّه الكريم بقوله:-

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيْمٍ﴾[1]

وقال الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿إنّما بُعثتُ لأُتمّمَ مكارم الأخلاق﴾

وبهذا نؤكّد التلازم بين العبادة والأخلاق.. فإنّه لا عبادة صحيحة من دون ثمراتها ومحاسنها، ومن أهمّها الأخلاق الفاضلة..

كما أنّه لا أخلاق من دون عبادة واعية صادقة، تربط الإنسان بربّه وخالقه، والتي تسوقه إلى العمل والاستقامة والانصياع إلى أوامر الله(تعالى) وترك نواهيه.

فلا يمكن أن نحكم على إنسان بالأخلاق والاستقامة من

---

[1] سورة القلم/آية/٤.

دون النظر إلى عبادته وطاعته وارتباطه بالله ﷻ وخشيته منه.. وقد حذّرَ الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم) من هذه النظرة الخاطئة التي تفصل الفضائل الخلقية عن الإيمان والعبادة.. حيث قال:-

﴿يأتي على الناس زمان يُقال للرجل فيه: ما أظرفه، ما أعقله، ما أجلده، وما في قلبه مثقال حبّة من إيمان﴾

بينما نجد القرآن الكريم، يرسم لنا صورة تفصيلية وواضحة للشخصية المؤمنة المستقيمة.. ونجد أنَّ العبادة أول معلم واضح فيها، وأول شرط من شرائطها.. ففي سورة المؤمنون..

يقول سبحانه:-

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُوْنَ الَّذِيْنَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُوْنَ وَالَّذِيْنَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُوْنَ وَالَّذِيْنَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُوْنَ وَالَّذِيْنَ هُمْ لِفُرُوْجِهِمْ حَافِظُوْنَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُوْمِيْنَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُوْنَ وَالَّذِيْنَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُوْنَ وَالَّذِيْنَ هُمْ عَلَى

صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُوْنَ﴾[١]

وهكذا نجد.. أنَّ الله ﷻ جعلَ أول صفة للشخصية المؤمنة والشخصية المستقيمة، هي الخشوع في الصلاة وآخر أوصافهم، المحافظة عليها، ووصفهم بفعل الزكاة وهي من أهم العبادات أيضاً، مع الفضائل الخُلُقية الأخرى.. ونقرأ في سورة المعارج في القرآن الكريم، حيث يقول تعالى:-

﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوْعَاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوْعَاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوْعَاً إِلاَّ الْمُصَلِّيْنَ الَّذِيْنَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُوْنَ وَالَّذِيْنَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُوْمٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُوْمِ وَالَّذِيْنَ يُصَدِّقُوْنَ بِيَوْمِ الدِّيْنِ وَالَّذِيْنَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُوْنَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُوْنِ وَالَّذِيْنَ هُمْ لِفُرُوْجِهِمْ حَافِظُوْنَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُوْمِيْنَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُوْنَ وَالَّذِيْنَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُوْنَ وَالَّذِيْنَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُوْنَ وَالَّذِيْنَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُوْنَ﴾[١]

---

[١] سورة المؤمنون/آية/(١-٩).

[١] سورة المعارج/آية/(١٩-٢٤).

ففي هذا المقطع من القرآن المجيد، بدأَ بالصلاة وختمَ بها، وأضافَ إليها التصديق بيوم الدين، والإشفاق من عذاب الله، بالإضافة إلى بقية الصفات الخلقية.

وقد نجد القرآن في بعض الأحيان يبرز جانب العبادة أكثر، وأحياناً جانب الأخلاق عندما يُحدّد الشخصية الإسلامية المستقيمة وفقاً لمناسبات واعتبارات توجب هذا الإبراز والإظهار.

ففي سورة الذاريات، نجد العناية بالعبادة في وصف المتقين، حيث يقول تعالى:-

﴿إِنَّهُمْ كَانُوْا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِيْنَ كَانُوْا قَلِيْلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُوْنَ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُوْنَ وَفِيْ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُوْمِ ﴾[٢]

ونجد العناية بالجانب الأخلاقي أكثر في سورة الرعد، عند وصف أصحاب العقول.. حيث يقول تعالى:-

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوْا الأَلْبَابِ الَّذِيْنَ يُوْفُوْنَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنْقُضُوْنَ الْمِيْثَاقَ وَالَّذِيْنَ يَصِلُوْنَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوْصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

[٢] سورة الذاريات/آية/(١٦-١٩).

وَيَخَافُوْنَ سُوءَ الْحِسَابِ وَالَّذِيْنَ صَبَرُوْا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوْا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوْا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرَّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِئةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾[١]

نلاحظ في هذا المقطع.. التأكيد على الأوصاف الأخلاقية –وذلك بمناسبة الحديث عن أُولي الألباب– مثل الوفاء والصلة والصبر والإنفاق.

وأنَّ هذه الأوصاف الأخلاقية، لها أساس من العبادة والتقوى، فهي قائمة بها ومبتنية عليها.. فهم إنّما يوفون بعهد الله، وإنّما يصلون ما أمرَ الله به أن يوصل، وهم إنّما يفعلون ويتركون، لأنّهم يخشون ربّهم ويخافون سوء الحساب.. وهم إنّما يصبرون ابتغاء وجه ربّهم، فهم في كلّ أخلاقهم وسلوكهم يرجون الله(تعالى)، ويرجون اليوم الآخر.

وهكذا نجد نهج القرآن الكريم في كل سوره وآياته، يجمع بين العبادة والأخلاق.. بين العقائد والأعمال الطيّبة.. ويجعل ذلك كله سلكاً واحداً ينتظم منه عقد جميل.. هو صفات المؤمن البار التقي.

---

[١] سورة الرعد/آية/(١٩–٢٢).

فإنّنا نجد في قوله تعالى في سورة البقرة:-

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوْا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِيْنَ وَابْنَ السَّبِيْلِ وَالسَّائِلِيْنَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوْا وَالصَّابِرِيْنَ فِي الْبَأسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِيْنَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ صَدَقُوْا وَأُوْلِئِكَ هُمُ الْمُتَّقُوْنَ﴾(١)

فقد جمعت هذه الآية الشريفة بين: العقيدة.. التي تتجلى في الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين.

وبين: العمل.. الذي يتجلى في إيتاء المال على حبّه، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

وبين: الأخلاق.. التي تتجلى في الوفاء والصبر.

ونجد نفس المنهج والمجمع، بين العبادة والأخلاق في قوله تعالى في سورة الفرقان: -

---

(١) سورة البقرة/آية/١٧٧.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِيْنَ يَمْشُوْنَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنَاً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُوْنَ قَالُوْا سَلاَمَاً وَالَّذِيْنَ يَبِيتُوْنَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدَاً وَقِيَامَاً وَالَّذِيْنَ يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامَاً إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرَّاً وَمُقَامَاً وَالَّذِيْنَ إِذَا أَنْفَقُوْا لَمْ يُسْرِفُوْا وَلَمْ يَقْتُرُوْا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامَاً وَالَّذِيْنَ لاَ يَدْعُوْنَ مَعَ اللهِ إِلَهَاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُوْنَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالحَقّ وَلاَ يَزْنُوْنَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ آثَامَاً يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيْهِ مُهَانَاً إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحَاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوْرَاً رَحِيْمَاً وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحَاً فَإِنَّهُ يَتُوْبُ إِلَى اللهِ مَتَابَاً وَالَّذِيْنَ لاَ يَشْهَدُوْنَ الزُّوْرَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللغْوِ مَرُّوا كِرَامَاً وَالَّذِيْنَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمَّاً وَعُمْيَانَاً وَالَّذِيْنَ يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِيْنَ إِمَامَاً أُوْلَئِكَ يُجْزَونَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّونَ فِيْهَا تَحِيَّةً وَسَلاَمَاً﴾[1]

---

[1] سورة الفرقان/آية/(٦٣-٧٥).

ومن جانب آخر.. نلاحظ أنَّ العبادات التي يقوم بها الإنسان المؤمن بشكل عام، هي نوع من الأخلاق.

وذلك، لأنَّ عبادة الإنسان المؤمن لله، من باب الوفاء لله، والشكر للنعمة، والاعتراف بالجميل، والتوقير لمن هو أهل للتوقير والتعظيم.. وكل ذلك من مكارم الأخلاق عند أهل الفضل والكمال.

ولهذا السبب، نرى القرآن المجيد يُعقّب على أوصاف المؤمنين القانتين المطيعين لله، بمثل هذه الآيات:-

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ صَدَقُوْا﴾[٢]

﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُوْنَ﴾[٣]

والصدق هو من أهم الفضائل الخُلُقية.. وأعلى مراتب الصدق، هو الصدق مع الله ربّ العالمين.

وهكذا يظهر.. أنَّ العبادة عند الإنسان المؤمن لون من الأخلاق الفاضلة المحمودة.. وأخلاقه أيضاً لون من العبادة المفروضة.. فأخلاقه، أخلاق دينية ربّانية دافعها الإيمان بالله ﷻ، وحاديها الرجاء في الآخرة، وغرضها مثوبة الله

---

[٢] سورة البقرة/آية/١٧٧.

[٣] سورة الحجرات/آية/١٥.

ورضوانه وحُسن جزائه..

فالإنسان المؤمن، يصدق الحديث، ويؤدي الأمانة، ويفي بالعهد، ويصبر في البأساء والضرّاء وحين البأس، ويُعين الضعيف، ويوقّر الكبير، ويرحم الصغير، ويغيث الملهوف، ويرعى الفضيلة والاستقامة في أقواله وسلوكه.. كل ذلك ابتغاء وجه الله، وطلباً لما عنده تعالى.

وتتضح هذه الصورة بأجلى صورها في المقاطع الشريفة عند وصف الله للأبرار من عباده، من البذل والرحمة والإيثار.

إذ قال:-

﴿وَيُطْعِمُوْنَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيْنَاً وَيَتِيْمَاً وَأَسِيْرَاً﴾[١]

ثم يُبيّن القرآن عن واقع بواعثهم، وحقيقة ما انطوت عليه نفوسهم، فيقول مُعبّراً عن لسانهم:-

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيْدُ مِنْكُمْ جَزَاءَاً وَلاَ شُكُوْرَاً إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمَاً عَبُوْسَاً قَمْطَرِيْرَاً﴾[١]

---

[١] سورة الدهر/آية/٨.

[١] سورة الدهر/آية/(٨-١٠).

ثم أنَّ أخلاق المؤمن عبادة من جانب آخر.. هي أنَّ مقياسه في الفضيلة والرذيلة، ومرجعه ومستنده فيما يأخذ وفيما يترك، هو أمر اللهﷻ ونهيه، ولا يرجع لغير الله من الضمير والعقل والعُرف..

فالضمير وحده ليس بمعصوم من الخطأ، وكم شاهدنا من أفراد وجماعات، رضيت ضمائرهم بقبائح الأعمال، لأنَّ ضمائرهم ميتة.

وكذلك العقل، وحده ليس بمأمون من الانحراف، وذلك لأنَّ العقل محدود البيئة والظروف، ومتأثر بالأهواء والنزعات وأكبر دليل على ذلك، هو الاختلاف الكبير للفلاسفة الأخلاقيين في مقياس الحكم الخُلُقي.

وحتى العرف، لا ثبات له ولا استقرار، وذلك لأنّه يتغير ويتبدل من جيل إلى جيل، وفي الجيل الواحد من بلد إلى بلد، وفي البلد الواحد من إقليم إلى إقليم.

لذلك كله، التجأ المؤمن إلى المصدر المعصوم والمأمون الذي لا يحتمل فيه الخطأ والنسيان، ولا يتأثر بظروف وأهواء ولا بِعُرف وعادات.. وذلك هو حكم الله:-

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمَاً لِقَوْمٍ يُوْقِنُوْنَ﴾[١]

وقد قال الفيلسوف الألماني (فيخنة):-

((الأخلاق من غير دين عبث))..

وقال الزعيم الهندي (غاندي):-

((إنَّ الدين ومكارم الأخلاق هما شيء واحد لا يقبلان الانفصال، ولا يفترقان بعضهما عن بعض، فهما وحدة لا تتجزأ)).

إنَّ الدين كالروح للأخلاق، والأخلاق كالجوّ للروح، وبعبارة أخرى.. إنَّ الدين يُغذّي الأخلاق ويُنمّيها وينعشها.

كما أنَّ الماء يُغذّي الزرع ويُنمّيه..

قال القاضي البريطاني (دينج):-

((بدون دين، لا يمكن أن تكون هناك أخلاق.. وبدون أخلاق، لا يمكن أن يكون هناك قانون)).

وقد قال ذلك قبل سنوات، بمناسبة الفضيحة الشهيرة للوزير البريطاني السابق (جون بروفيمو وعشيقته كريستين كلير)، وقد استمر هذا القاضي على دراسة هذه القضية عدة

---

[١] سورة المائدة/آية/ ٥٠.

شهور وخرج بهذه النتيجة.

فالدين: هو المصدر الوحيد الفذّ المأمون والمعصوم الذي يُعرف منه حُسن الخُلُق من قبيحها.

والدين: هو الذي يربط الإنسان بمَثَلٍ أعلى يرنو إليه ويعمل له.

والدين: هو الذي يحدّ من أنانية الفرد، ويُقلّل من طغيان غرائزه، وسيطرة عاداته، ويوجّهها لأهدافه، ويُخضعها لمُثُلِهِ ويُربّي فيه الضمير الحيّ الذي على أساسه يرتفع صرح الأخلاق.

الصلاة... خُلُق وسلوك

وأول مثل من أمثلة المنهج التربوي في العبادات.. هو الصلاة.. فالصلاة في الحقيقة -والتي هي من أهم مظاهر الإيمان إنّما هي زخم هائل، تمدّ الإنسان المؤمن بقوّة خُلُقية وروحية ونفسية، وتحثّه وتقوّيه على فعل الخير، وتُحذّره وتمنعه من الشرّ بكلِّ أنواعه من الفحشاء والمنكر..

والصلاة تغرس في قلب الإنسان:-

الإيمان بمراقبة الله ﷻ، ورعاية حدوده، والحرص على المواقيت، والدقّة في المواعيد، والسيطرة على كلّ نوازع الكسل والهوى، والتغلب على كلّ جوانب الضعف الإنساني..

وبهذا الصدد يقول القرآن الكريم:-

﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوْعَاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوْعَاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوْعَاً إِلاَّ الْمُصَلِّيْنَ الَّذِيْنَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُوْنَ﴾[1]

ويقول تعالى:-

﴿وَأَقِمْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ

---

[1] سورة المعارج/آية/(١٩-٢٣).

وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُوْنَ﴾[١]

فإنَّ في الصلاة، يشعر المؤمن بالسكينة والرضا والطمأنينة..

إنّه يبدأ صلاته بالتكبير لله، فيستشعر أنَّ الله(تعالى) أكبر من كلِّ شيء، وأكبر من كلِّ ما يروّعه ومن يروّعه في هذه الحياة الدنيا.. ويقرأ المصلي في صلاته -فاتحة الكتاب- فيجد فيها تغذية للشعور بنعمة الله.. حيث يقول:-

﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ﴾[٢]

وبعد ذلك، تغذية للشعور بعظمة الله وعدله، وأنّه يجمع الناس في يوم لا ريب فيه، للحساب والجزاء.. حيث يقول:-

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ﴾[٣]

بالإضافة إلى تأكيد شعوره بالحاجة إلى الصلة بالله، وإلى عونه ومساعدته سبحانه.. حيث يقول:-

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ صِرَاطَ الَّذِيْنَ أَنْعَمْتَ

---

[١] سورة العنكبوت/آية/٤٥.

[٢] سورة الفاتحة/آية/(٢-٣).

[٣] سورة الفاتحة/آية/٤.

عَلَيْهِمْ غَيرِ الْمَغْضُوْبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّيْنَ﴾[١]

وهكذا، فإنَّ الصلاة الصحيحة تمدُّ الإنسان المؤمن بالأخلاق والاستقامة، بالإضافة إلى ما تمدّه بقوة نفسية فيّاضة.. ويقول في هذا السبيل، الدكتور (الكسيس كاريل) في كتاب (دع القلق)، وهو من أشهر الأطباء، يبيّن لنا مدى هذه القوة الخُلُقية والنفسية، التي يكسبها الإنسان في صلاته ومناجاته.. فيقول:-

((ولعل الصلاة هي أعظم طاقة مولّدة للنشاط عُرِفت إلى يومنا هذا، وقد رأيتُ بوصفي طبيباً، كثيراً من المرضى فشلت العقاقير في علاجهم، فلمّا رفع الطبّ يديه عجزاً وتسليماً، تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عللهم..

إنَّ الصلاة كمعدن (الراديوم) مصدر للإشعاع، ومولّد ذاتي للنشاط، وبالصلاة يسعى الناس إلى استزادة نشاطهم المحدود، حين يخاطبون القوة التي لا يفنى نشاطها.

إنّنا نربط أنفسنا حين نصلّي بالقوة العظمى التي تهيمن على الكون، ونسألها ضارعين أن تمنحنا قبساً منها نستعين

---

[١] سورة الفاتحة/آية/(٦-٧).

به على معاناة الحياة، بل أنَّ الضراعة وحدها كفيلة، بأن تزيد قوتنا وأخلاقنا ونشاطنا، ولن تجد أحداً ضرعَ إلى الله مرة إلاّ عادت عليه الضراعة بأحسن النتائج)).

وإنَّ ما نرى من بعض المصلين.. من ضعف الأخلاق وانحراف السلوك.. فلابد أنَّ صلاتهم جسم بلا روح، وشكل بدون مضمون، وصورة من دون حقيقة.. وأنَّ حركاتهم في الصلاة بلا خشوع قلب، ولا حضور عقل.. وإنّما الفلاح للمؤمنين الخاشعين، الذين هم في صلاتهم خاشعون، كما جاء في الحديث الشريف:-

﴿ليس لكَ من صلاتك إلاّ ما وعيت﴾

أما المتظاهرون بالصلاة.. وهم بعيدون عن معطيات الصلاة، من رقّة القلب وتفتّح الصدر على الخير.. فما أحقّهم بوعيد الله.

﴿فَوَيْلٌ لِلمُصَلِّيْنَ الَّذِيْنَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُوْنَ الَّذِيْنَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُوْنَ الْمَاعُوْنَ﴾[1]

---

[1] سورة الماعون/آية/(٤-٧).

الصوم... وأثره في الأخلاق والسلوك

إنّ للصوم دوراً كبيراً وأثراً بالغاً.. في تربية الروح، وتنقية النفس، وتطهير الداخل، وتنمية الأخلاق والفضيلة، وتأكيد الصلاح والاستقامة..

ففي الصوم، الانفتاح الكامل على حاجات الروح وتطلعات النفس، وفيه التفرغ لمطاليبها وحاجاتها الروحية والمعنوية..

فنرى الإنسان الصائم منفتحاً انفتاحاً كبيراً، للتوجّه إلى الله وأوامره ونواهيه وسلوكه وأخلاقه، والرغبة إليه بالعبادة والدعاء، والاستعداد للاستقامة والصلاح.

فإنَّ الإنسان بإعراضه المؤقت عن الجسد ومتطلباته ترهف عنده أحاسيس الرحمة والشفقة والعاطفة والحنان، ويكون أكثر ميلاً إلى الله ﷻ.

فبالصوم.. يتزوّد الصائم بالسلاح النفسي الذي يكتسبه من أثر صومه، وهو سلاح الصبر والإرادة والقوة والعزيمة، لكي يقف أمام نوازع الشهوة والهوى والحقد والحسد والشكّ

والشبهة والغضب والطغيان، حتى لا تخرج عن حدودها ومقاييسها الموضوعة لها..

ومقابل هذا.. فإنَّ الشخص الذي يتّجه إلى غير الله بالقصد والرجاء.. لا صوم له.

والذي يفكّر في الخطايا، ويشتغل بتدبير الفتن والمكائد ويحارب الله ورسوله في جماعة المؤمنين.. لا صوم له.

والذي يطوي قلبه على الحقد والحسد والبُغض لجمع كلمة المؤمنين والعمل على تفريقهم وإضعافهم.. لا صوم له.

والذي يُحابي الظالمين، ويجامل السفهاء، ويعاون المفسدين.. لا صوم له.

والذي يمدّ يده أو لسانه أو جارحة من جوارحه بالإيذاء لعباد الله المؤمنين أو إلى انتهاك حرمات الله.. لا صوم له.

فالصائم ملاك في صورة إنسان، لا يكذب، ولا يرتاب، ولا يحسد، ولا يحقد، ولا يسبّ، ولا يشتم، ولا يستغيب، ولا يتّهم، ولا يخاذل، ولا يماري، ولا يأكل أموال الناس بالباطل.

كل ذلك نتيجة لتربية الصوم إليه وتأثيره عليه. فإنَّ الصائم بصومه يجمع بين تخلية نفسه وتطهيرها من

المدنّسات وتزكيتها بالطيّبات.

وقد ورد في الحديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنّه قال:-

﴿فإذا صمتم فاحفظوا ألسنتكم عن الكذب، وغضُّوا أبصاركم ولا تنازعوا ولا تحاسدوا ولا تغتابوا ولا تُماروا ولا تكذِبوا ولا تباشروا ولا تخالفوا ولا تغاضبوا ولا تسابُّوا ولا تشاتموا ولا تنابزوا ولا تجادلوا ولا تبادروا ولا تظلموا ولا تسافهوا ولا تزاجروا ولا تغفلوا عن ذكر الله وعن الصلاة والزموا الصمت والسكوت والحلم والصبر والصدق ومجانبة أهل الشر واجتنبوا قول الزور والكذب والفراء والخصومة وظن السوء والغيبة والنميمة، وكونوا مشرفين على الآخرة منتظرين لأيامكم، منتظرين لما وعدكم الله، متزودين للقاء الله، وعليكم بالسكينة والوقار والخشوع والخضوع وذُلِّ العبد الخائف من مولاه راجين خائفين راغبين راهبين قد طهّرتم القلوب من العيوب وتقدست

سـرائركم مـن الخبـث ونظّفـتم الجسـد مـن القاذورات ﴾

والصوم دورة تعليمية لنموِّ المُثل والأخلاق عند الإنسان ويمكن التركيز على بعض معطياته وآثاره في النفس والروح، والسلوك والأخلاق.

فنرى الصوم من أهم العوامل التي تربط الإنسان بخالقه، وتوقظه من غفلته وغفوته، فيندم على ما ارتكبه من المخالفات والآثام وتصحو نفسه عن المعاصي والآثام وينقطع إلى الله ﷻ متّخذاً من جوعه وعطشه وسيلة للتقرب منه تعالى.

ويعود بالصيام إلى صفائه ونقائه وتسمو روحه عن النوازع المنحرفة، وعن كثير من ملذّات الجسد ويصبح يعيش في روحانية سامية تتغلّب على الانحرافات النفسية والاجتماعية.. والنتيجة، أنَّ الإنسان كلما قوّى ارتباطه بالله، وكلما ازدادت علاقته بخالقه، تسمو روحه، ويتحسّن خُلُقه ويستقيم سلوكه.

ونرى الصوم له دور كبير في تحديد تصرفات الغرائز

عند الإنسان.. فإنَّ الإنسان مكوّن من عدّة غرائز وميول، مثل: الغريزة الجنسية وغريزة حب الذات وغريزة الطمع والخوف والجوع والعطش.. وإلى ما هنالك من الغرائز التي تتحكَّم في سلوك الإنسان وتصرفاته.. ولا يستطيع أن يكبتها، لأنّها جزء من كيانه ووجوده.. والتي لابد من أن يستثمرها في حياته بصورة معقولة.. وهنا تأتي وظيفة الصوم، فهو المُحدّد لهذه الغرائز كي لا تنحرف عن الصراط المستقيم الذي رسمه الله لها..

فالصوم إذن هو رقابة داخلية تقوم بعملية تنظيم هذه الغرائز، وبذلك يصحُّ سلوكه، ويتحسّن خُلُقه.

ونرى الصوم له أثر كبير بالالتزام الكامل بالنظام، والذي هو من أُسس الأخلاق، فالصيام يفرض على الصائم اتّباع نظام معين، فإنّه يُعيّن وقتاً واحداً للإمساك، ووقتاً واحداً للافطار، ويفرضه على جميع الصائمين، الفقير والغني، والرئيس والمرؤوس، والقويّ والضعيف، لا تمييز لأحد على الآخر.

وبهذا يُعلّمنا الصوم روح التطبّع على النظام، وتطبيق

أوامره، والذي هو من أهم أسس الأخلاق –كما قلنا–

ونرى في الصوم رياضة نفسية ضخمة تطبع الإنسان على الصبر.. الذي هو من أهم قواعد الأخلاق والاستقامة.. والذي به يتمكّن الإنسان من ترك اللذائذ المحرّمة، وتطهير الداخل من نزغات الشيطان، وما يُلقيه في روع الإنسان ولهذا قال النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم):–

﴿رمضان شهر الصبر وإنَّ الصبر ثوابه الجنة﴾

ونرى الصوم له أثر بالغ في تقوية الإرادة، وتحمّل المشاق.. فإنّ الصائم الذي يشعر بالجوع والعطش، ويرى أمامه ألوان الطعام والشراب، وتحت تصرّفه ونفوذه، ويمتنع عن استعمالها إرادياً، فتحصل لديه إرادة قويّة تعوّده على النظام، وتحمّل الصعاب، وتقوّي عزمه وإرادته، وبذلك يتمكّن من نفسه، ويسمو بخُلُقهِ، ويستقيم في عمله.

ونرى في الصوم تجسيداً للشعور بالمساواة، فإنَّ الصوم يجعل الاحساس واحداً بين الفقير والغني، والكبير والصغير، وهو التحسّس بألم الجوع والعطش، حتى يشعر الغني بألم

الجـوع ومـرارة العطـش، فيحنـو لا شـعورياً علـى الفقـراء والمساكين كما قال إمامنا الصادق(عليه السلام):-

﴿إنّمـا فَـرَضَ الله(تعالى) الصـيام ليسـتويَ بـه الغنـي والفقير، وذلك لأنَّ الغنـي لـم يكـن يجـد مـسّ الجـوع فيـرحم الفقيـر، لأنَّ الغنـي كلمـا أرادَ شيئاً قَدرَ عليـه، فـأراد الله(عز وجل) أن يُسـوّي بين خَلْقِهِ وأن يُذيقَ الغني مَسَّ الجـوع، وإلاّ لم يرق على الضعيف ويرحم الجائع﴾

أثر الحجّ... في السلوك والأخلاق

فالحجّ كغيره من العبادات.. من حيث تأثيره البالغ ودوره الكبير في تربية الأخلاق، وتنمية القيم والفضيلة، وتزكية الروح والنفس، وتنظيف الداخل والمضمون عند الإنسان..

ونحن إذا أردنا استعراض بعض معطيات الحجّ النفسية والخُلُقية.. فلابد لنا من أن ننظر إليه كمجموعة كاملة مترابطة.. ثم نلاحظ المعطيات لبعض الأعمال والمناسك.

وعلى أساس هذه النظرة، يمكننا أن نذكر بإيجاز أهم هذه المعطيات:-

١-الارتباط الكامل والعميق بالله عزّ وجلّ:

وذلك نتيجة للتركيز الشديد على ذكر الله المتواصل في أيام الحجّ.. فإنَّ الحاجّ في أيام الحجّ يردّد كثيراً ذكر الله(تعالى)، ويستشعر بوجود رابطة بينه وبين الله استشعاراً عميقاً.

ومن المؤكد، أنَّ هذا الترديد المركّز سوف يترك أثره على حياة الحاج العامة، ليرتبط في كل آن بالله عزّ وجلّ، يتلفّظ بذكره ويستشعر عظمته، عند كل قول يقوله أو عمل يقوم به.

٢-الوحـــدة والأخـوّة:

فإنَّ من أهم فوائد الحجّ.. هو الشعور بالوحدة والأخوّة بين المسلمين، فإنَّ الحجّاج الذين لا تجمعهم لغة واحدة، ولا تقاليد، ولا حدود، ولا مستوى، ولا لون، تراهم مجتمعين، ومتآخين، ومتحابّين، منطوين تحت لواء واحد، وحاملين عقيدة واحدة، فهم جميعاً في منطلق واحد، ومسير واحد، وهدف واحد.. هو العبادة لله ﷻ، والتضحية في سبيله.

ومما نستوحي من الإحرام:-

١-الإخلاص والخشوع: فإنَّ في الإحرام منتهى الإخلاص، وغاية الخشوع لله(تعالى)، ورفض كلّ شيء سواه من المطلقات الوهمية، ونَزْع كلّ هوى بها تماماً، كما ينزع الإنسان ملابسه، وغسْل النفس عن كلِّ دَنَس معنوي، كما يغتسل الإنسان للإحرام، والتلبّس بالحسنات والصالحات كما يلبس الإنسان ثوبي الإحرام الطاهرين، والرجوع إلى الفطرة السليمة، ورفض كل المقاييس الوهمية التي تفصل بين أبناء الإنسانية..

وذلك يبدو بوضوح عندما يلبس الجميع ثوبين بهيئة واحدة، فتتمثل لهم حقيقة التساوي بين الأفراد من الجهة

المادّية، ويبدأ التسابق في المجال المعنوي، كل هذا يجري باختيار الإنسان، وتدريباً له على أن يكون كذلك في كلّ حالات حياته.

٢-التذكير بالآخرة: فإنَّ الحاجّ يتذكّر بالإحرام يوم القيامة، وما في ذلك الموقف العظيم من الرعب والرهبة، حيث يخرج الناس إلى الله ﴿وَبَرَزُوْا للهِ الوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ وهذا ما يوحي له شبه الثوبين بالكفن.

ومما نستوحيه من التلبية:-

هو أنَّ الإنسان عند تلبيته.. يستشعر كونه في عداد أولئك الذين أجابوا دعوة إبراهيم عليه السلام.

وبأنّه يرتبط بحركة التوحيد الخالص لله(تعالى)، الذي يُنزهّه عن كل مفتريات المشركين وادّعاءات أهل الكتاب بكلِّ ما يعنيه هذا الارتباط، من تحكيم التوحيد في كلّ شؤون الحياة.

وبأنَّ عليه أن يستجيب لكلّ نداء إصلاحي حقيقي ﴿الَّذِيْنَ يَسْتَمِعُوْنَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُوْنَ أَحْسَنَهُ﴾ فيلبي نداء الإسلام للعمل الصالح في سلوكه وأخلاقه ويتّبع سبيل

المؤمنين.

أما ما نستوحيه من محرّمات الإحرام وما يتركه هذا التحريم، فهو كما يلي:-

١-مراقبة النفس:

فإنَّ التزام الحاجّ بترك تروك الإحرام، من أهم أسباب التربية الأصيلة لعنصر مراقبة النفس.. فإنَّ الحاجّ بعد أن يدخل في جوِّ الإحرام، يشعر بأنّه صار تحت حماية الله ﷻ ومراقبته، فهو في دورة تدريبية خاصة.. عليه فيها، أن يتنبّه ويكون واعياً تمام الوعي حتى لا يقوم بأيّ عمل من هذه الأعمال المحرمة، والتي منها ما اعتاد عليها في أوقاته الاعتيادية.. فيُطلب إليه مثلاً، أن لا يشم الطيب، وأن لا ينظر في المرآة، وأن لا يقطع شعرة من بدنه، وأن لا يقتل هوام البدن، إلى غير ذلك من باقي المحرمات الأخرى.. وكلّ هذا، يحتاج إلى مراقبة دقيقة يستمر تأثيرها في كلّ سلوك يسلكه الحاجّ بعد ذلك.

٢-عنصر الإرادة:

فإنَّ بترك محرمات الإحرام، تربية أصيلة لعنصر الإرادة

عند الإنسان.. فإنّه قد حُرّمت عليه هذه المحرمات، وهي في متناول يديه، لتمتحن إرادته في مقدار استجابتها لأوامر اللهﷻ، ومقدار سيطرتها على النوازع والغرائز.

٣-الكلام الحَسن:

فنرى أنَّ محرمات الإحرام تُدرّب الإنسان تدريباً عملياً على الألفاظ المؤدبة والكلام الحَسن، والمنطقية في الحديث والقصد في الكلام.

٤-الزهد:

ففي محرمات الإحرام، تدريب الإنسان على الزهد بالمتع الدنيوية واللذائذ، والشهوات، والتحرر من ربقتها وعبوديتها.